الأخلاق والواجبات

تمهيد

نريد بالأخلاق والواجبات التي عليها مدار الكلام في هذا الكتاب مجموع الفضائل والاعمال الصالحة التي يمارسها الانسان فتجعله ذا شخصية مستقلة وكيان خاص ، وهي باعتبار صدورها عن نفس الانسان ، واعتياد جوارحه لها تسمى « أخلاقا » وباعتبار وجوب ممارستها والقيام بها ليكون عضواً عاملا في الهيئة الاجتماعية تسمى « واجبات » . وانما جعلنا الاخلاق أعمالا للانسان ولم نجعلها ملكات أو صفات لنفسه : لأنها لا قيمة في الواقع ونفس الأمر للصفات التي تتصف بها نفس الانسان مادمنا لانرى لها أثراً في المحيط الخارجي . فمهما كانت نفس الانسان مشبعة بحبّ النظافة ، عارفة بطرقها ، مقتنعة بلزومها ، لا يصح أن يقال انه متخلق بخلق النظافة أو قائم بواجب النظافة ، مع أننا نرى جسمه غير نظيف ، وثوبه غير نظيف ، وفِناء داره غير نظيف ومتاع بيته غير نظيف . ومهما شعر الانسان من نفسه بالشجاعة والاقدام لا يصح أن يقال انه شجاع ما دام يحجم أو يتسلّل لواذاً عن مواطن الخطر ، والدفاع عن الحوزة . ومهما أحسّ من نفسه العطف والحنان على الفقير لكنه لا يجود بفلس واحد في سبيل راحة ذلك الفقير وتخفيف الضرّ عنه ـ لا يصح أن يقال انه شفوق ولا أن يصف نفسه بصفة الرحمة والحنان . ومهما قال عن نفسه انه يحب وطنه وأنه

يعتقد وجوب خدمته والاستماتة في سبيله ، وهو اذا كُلّف أقلّ عمل لمصلحته جادل عن نفسه وماری ، أو انخزل عن تأييد تلك المصلحة وتوارى ، كان كاذبا في دعوى الوطنية ، ولم يكن محباً لوطنه ولا متخلّقاً بحب الوطن . وهكذا سائر الاخلاق والفضائل الانسانية : فالأخلاق لدى التحقيق أعمال مشهودة تقع آثارها تحت مشاعر الحسّ سواء هي في ذلك قبل أن تصبح عادةً للانسان تصدر عن نفسه بسهولة ، او بعد ان تصبح عادة له . اليس هو قبل ان يعتاد الصدق يصدق بالفعل ثم يصدق بالفعل ثم يصدق بالفعل ثم يصبح الصدق أخيراً عادةً له بحيث تصدر عنه أعماله وأقواله الصادقة بسهولة ، ومن غير روّية. فانظر كيف ان الأخلاق أعمال متكررة في نهاياتها ، كما هي كذلك في بداياتها

لكن هذه الأخلاق والاعمال في الانسان ترتكز على نيته وارادته المستقرة في نفسه . وبهذه النية أو الارادة تصبح الأعمال أعمالاً اخلاقية ، ويكون لها حظها من الحسن والقبح ودرجتها من الميزة والاعتبار ، والا كانت وأعمال الحيوان سواء : فان أعمال الحيوان تشبه أن تكون حركاتٍ ميكانيكيةً لصدورها عنه من دون قصد ، ولا سابقة فكر . ولقد أحسن من قال : « من زرع فكراً حَصَدَ عملا ، ومن زرع عملا حَصَدَ عادة ، ومن زرع عادة حصد خُلقا ، ومن زرع خُلقا حصد حظه من هذه الدنيا سعادة أوشقاء ». فعلى المربي إذاً ـ أُمًّا كان أو أباً أومعلّماً ـ أن لايتخذ القاعدة في تربية الطفل وصف الفضائل والآداب ، وتزيينها في نفسه وحمله على الاقتناع بضرورتها ، مكتفياً بذلك عن قرنها بالعمل الخارجي ، والممارسة الفعلية : ففي خُلق (التعاون) مثلاً بدل أن يسردَ على مسمع الطفل القضايا والمسائل سرداً يقوم بمعونة الغير عملاً على مرأى منه المرّة بعد المرة ، ويمهد بين يديه طريق عمله وممارسته فيصير الطفل معواناً لغيره من بني جنسه ، ويصح إذ ذاك أن يقال : إنه محب للتعاون ، متخلق بخلق التعاون

والخلق أو الواجب الانساني تارة يكون شخصياً أي متعلقاً بشخص الانسان وعائداً أثره اليه لا الى غيره من أبناء نوعه ، وهذا كالسعي والعمل في كسب المال ، وطوراً يكون اجتماعياً يتصل أثره ونفعه بغير الانسان من أبناء جنسه : وهذا كالتعاون والتحابّ وبذل المساعدة للآخرين المشاركين له في هذا المجتمع لكنّنا اذا أنعمنا النظر وجدنا أنه قلّما يخلو واجب شخصيٌّ من أثارةٍ اجتماعيةٍ فيه ، كما أنه قلما يخلو واجب اجتماعي من أثارةٍ أو علاقة شخصيّة فيه : فالسعي والعمل مثلا واجب شخصي تعود ثمرته ونفْعه على العامل الساعي كما قلنا ، لكنْ فيه أثارةٌ أو علاقة اجتماعية أيضاً من حيث أنه لو لم يَسْعَ الانسان ويكدح لَمَا وُجِدَ مجموع أعمال الامة ومساعيها التي تتوقف عليها نهضتها وارتقاء هيئة اجتماعها وانّ الدرهم الذي يكتسبه العامل الساعي جزءٌ من مجموع ثروة الامة ، ولو لا درهم الفرد لما تكوّنت ثروة المجموع ، كما أنه لولا نقطة الماء لما وجد هذا البحرُ الخضمُّ

« والتعاونُ والتحابّ » واجب اجتماعيّ كما ذكرنا . ولكنْ فيه أثارةٌ أو علاقة شخصية يرجع أثرها ، ويتهدّلُ ثمرها ، على المتخلق بخلق التعاون ، وان لم يقصد هو ذلك من وراء عمله : فان مَنْ أحب الناس وبغى الخير لهم ، ومدّ يده الى مساعدتهم في أيام شدتهم كانوا بالطبع حريصين على مقابلته بالمثل ، ومدّ يد المعونة اليه لحين شدّته ، وأيام محنته ، فيكون بذلك قد جنى مما غرسه من هذا الواجب الاجتماعي نفعاً شخصياً ، وثمراً شهياً . وهكذا سائر الاخلاق والواجبات التي يكلف الانسان ممارستها في حياته : فانها مهما كانت شخصيةً من جهة تكون اجتماعيةً من جهةٍ اخرى ما دام الانسان مَدَنيًّا بالطبع . وقد شاء خالقه الحكيم أن تكون مصلحته ومرافقُ حياته مرتبطة بمصلحة بني جنسه ومرافق حياتهم :

والناسُ للناس من بَدْوٍ ومن حَضَرٍ بعضٌ لبعض ـ وإن لم يشعروا ـ خدمُ

ولكننا في هذا الكتاب (الذي نريد أن نشرح فيه أخلاق الانسان وواجباته سواء أكان منفرداً أو عائشاً مع الجماعة) مضطرون الى تصنيف هذه الأخلاق والواجبات وتوزيعها على المواضيع المختلفة ، وجعلها مباحثَ مباحثَ : فالاخلاق التي يغلب أن يكون أثرها متعلّقاً بالفرد ونفعها الظاهر عائداً على شخصه نجعلها من (الواجبات الشخصيّة) والتي يغلب أن يكون أثرها ونفعها الظاهر عائداً للآخرين من أعضاء المجْتمع نجعلها في عداد الواجبات الاجتماعية ، ونجعل هذه الاخيرة ثلاثة أقسام : (واجباتٍ عائليةً) و (واجبات اجتماعية) ، (وواجبات مدنية) ثم نعقب ذلك بتتمةٍ تشتمل على ستين آيةً وحديثاً في ضروب من الاخلاق والواجبات مختلفة

مكانة الاخلاق

إن «الاخلاق والواجبات» هي الروح الأدبي أو النظام الادبي الذي أودعه الله نفوسَ جماعات البشر ، وجعله من أكبر العوامل في سعادتهم وشقائهم ، وأدق المقاييس للدلالة على انحطاطهم وارتقائهم ، حتى قال بعضُ علماء الاجتماع « إنما تتفاضل الامم في حالة البداوة بالقوة البدنية ، فاذا ارتقت تفاضلت بالعلم ، ثم اذا بلغت من الارتقاء غايته تفاضلت بالاخلاق »

نعم انه تعالى أنزل الشرائع السماوية لتكون واسطة في اسعاد نوع الانسان ، وسَوْقه الى بحابح المدنيـة والعمران ، لكنه تعالى أراد أن تكون «الاخلاق والواجبات» الركن المتين لهذه الشرائع ، والسببَ الاكبر في ظهور أمرها ، وبقاء سلطانها . فقد روى سيدنا أنس رضي الله عنه قوله صلى الله عليه وآله وسلم:

﴿ إنَّ حُسْنَ الخُلُقِ نِصْفُ الدِّين ﴾

وجاء في الحديث الصحيح عن أنس أيضاً عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال :

﴿ إنَّ الخُلُقَ وِعاءُ الدِّين ﴾

ومعنى ذلك أن نسبة الخُلُق الحسن الى الدين كنسبة الوعاء الى ما استقرّ فيه : كالماء مثلاً فكما أن الماء لا يقوم بنفسه من دون وعاءٍ يضمّ أجزاءه ، ويصونها عن التفرّق والضياع : كذلك أحكام الدين وتعاليمه لا تقوم بنفسها ولا يدوم سلطانها ما لم يكن في المتدينين أخلاق ثابتة تحوط تعاليم الدين وتحفظها من الضياع والاضمحلال ، وقد قال صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ إنَّ اللهَ حفَّ الاسلامَ بمكارمِ الأخلاق ، ومحاسنِ الأعمال ﴾

وقد جعل صلى الله عليه وسلم الغاية من بعثته الشريفة الى الخلق نشر مكارم الأخلاق فيهم مذ قال :

﴿ إنما بُعِثْتُ لأُتمِّمَ مكارمَ الأخلاق ﴾

ولما أراد تعالى أن يثني على نبيّه في القرآن وصفه بحسن الخلق فقال :

﴿ وإنَّكَ لعلى خُلُقٍ عظيم . ﴾

وقال أميرُ المؤمنين عليّ عليه السلام « لا قرينَ كحسن الخلق ، ولا تجارة كالعمل الصالح . »

وما أحسن ماقاله نابغة بني شيبان يتمدّح بحسن أخلاقه ، ويحقُّ له ذلك :

سائلوا الإخوان إن فارقتهم ... يومَ يمشون الى قبري بنعشِ
هل غشينا محرَماً في قومنا ... أو جزَينا قاذعاً فُحْشاً بفُحْشِ

الاخلاق والايمان

الايمان في اللغة التصديق الجازم ، وفي الشرع التصديق الجازم بما جاء به نبينا محمد صلى الله عليه وسلم من تعاليم الاسلام ، وعقائده الصحيحة . والاخلاق

والواجبات الشخصية والاجتماعية تستغرق معظم تعاليم الاسلام وجاء في الحديث الشريف ﴿ الايمانُ بِضْعٌ وسبعونَ شُعبة : أفضلُها قولُ لا إلهَ إلاّ الله . وأدْناها إماطةُ الاذَى عنِ الطَّريق ﴾

ومعنى « إماطة الأذى عن الطريق » تنحية الحجر والشوك وكل عاثور يؤذي المارة في طريقهم ، فانظر كيف جعل اماطة الأذى عن الطريق من خصال الايمان وليست هى سوى واجبٍ من الواجبات الاجتماعية ، واذا كانت « اماطة الأذى » من شُعَب الايمان كانت شُعَبه وخصاله التى لها علاقة بالواجبات الشخصية والاجتماعية مما يفوق الحصر ، ويتجاوز كل حد ، ولا يخفى أن قوله صلى الله عليه وسلم « بضع وسبعون » ليس المراد به التحديد وتعيين العدد ، وانما المراد به مطلق الكثرة ، وهو أسلوب معهود فى لغة العرب ، يقولون « جئتك سبعين مرة » ويريدون المجيء مراراً كثيرة

وهناك طائفة من الأحاديث الشريفة تتضمن نموذجات من شُعب الايمان وخصاله الأخلاقية والأدبية :

﴿ أشرفُ الايمان أنْ يأمَنَكَ الناسُ ، وأشرفُ الإسلام أن يَسلمَ الناسُ من لِسانِك ويَدِكَ ﴾

﴿ المؤمنُ مَنْ أمِنَهُ الناسُ على أمْوالِهِمْ وأنْفُسِهِمْ ، والمُهاجِرُ مَنْ هَجرَ الخطايا والذُّنوبَ ﴾

﴿ أفضلُ الايمان أنْ تُحبَّ للناسِ ما تُحِبُّ لنفسِكَ وتَكرَهَ لهمْ ما تَكرَهُ لنفسِكَ ، وأنْ تقولَ خيراً أو تَصْمِت ﴾

﴿ مَنْ سرَّتْهُ حَسَنَتُهُ ، وساءَتْهُ سيِّئَتُه فذلِكُمْ المؤمن ﴾

قوله « وساءته سيئته » أيْ كان له ضمير ووجدان يوبّخه على صنيعه . ويبكّته على ما اقترف من السيئات

وقال عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه « الإيمان أن توثر الصدق حيث يضرّك على الكذب حيث ينفعك » وفي الحديث :

﴿ لا يؤمن أحدكم حتى يحبّ لأخيه ما يحبّ لنفسه ﴾

﴿ ليس بمؤمن من لم يأمن جاره غوائله [1] ﴾

﴿ أحسنكم إيمانا أحسنكم أخلاقا ﴾

﴿ إنّ من كمال الإيمان حسن الخلق ﴾

﴿ علوّ الهمّة من الإيمان ﴾

والمراد بعلوّ الهمّة كبر النفس والطموح الى معالي الامور

﴿ الدين المعاملة ﴾

والأحاديث في هذا المعنى كثيرة اكتفينا منها بما ذكر . وكلها تدلّ على إن ما نسميه «الاخلاق والواجبات» ـ شخصية كانت أو اجتماعية ـ هو من خصال الايمان ، وأجزائه المتمّمة له . وإنه على قدر ما يتوفر في الشخص من هذه الاخلاق والواجبات ، تتوفّر فيه شعب الايمان وخصاله ، فليزدد المؤمن الموفّق من ذلك أو لينقص

ولا شيء يدلّ على شدة علاقة الأخلاق بالأيمان في نظر الأسلام مثل ما وَرَدَ عن سفّانة بنت حاتم الطائي مذ أسرتها خيل رسول الله صلى الله عليه وسلم وأتوه بها فقالت « هلك الوالد ، وغاب الرافد ، فإن رأيت أن تخلّي عني ، ولا تشمّت بي أحياء العرب ، فان أبي كان سيّد قومه : يفك العاني ، ويقتل الجاني . ويحفظ الجار ، ويحمي الذمار . ويفرج عن المكروب ، ويُطعم الطعام ويفشي السلام . ويحمى الكلّ ، ويُعين على نوائب الدهر . وما أتاه أحد فى

---

(١) جمع غائلة وهي الاذى والضر

حاجةٍ فردَّه خائبًا: أنا بنت حاتم الطائي » فقال لها صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ يا جاريةُ هذه صِفاتُ المؤمنينَ حَقًا ، خَلُّوا عنها : فانَّ أباها كانَ يُحِبُّ مكارِمَ الأخلاق ﴾

ثم أسلمت هي وأخوها (عديّ بن حاتم) رضي الله عنهما

الاخلاق والعبادات

فُهِمَ من الفصل السابق أن الايمان كما يطلق على التصديق الجازم بما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم من التعاليم الدينية يُطلق أيضًا على ممارسة الأعمال والقيام بالواجبات الشخصية والاجتماعية التي أرشدت اليها تلك التعاليم . لكن اطلاق الايمان ، على « التصديق القلبي » أكثر تداولا ، وأشبه أن يكون هو الحقيقة في أصل الوضع . وعلى العكس من ذلك كلمة العبادة : فان الأحاديث والآثار الواردة في الحضّ عليها تفيد أن المراد بها ممارسة الطاعات البدنية ، والقيام بالشرائع العملية . وان كانت العبادة تطلق أيضًا في اللغة على توحيد الله ، وتعظيمه أبلغ تعظيم ، وتذليل النفس له ، والخضوع القلبي بين يديه. وجاء في الحديث الشريف :

﴿ لا عِبادَةَ كالتَّفَكر ﴾

فقد جعل الشارعُ « التفكّر » من العبادات وانما هو التأمل في عَظَمة الله وحكمته الباهرة في ابداع نظام الكائنات . فموضوع العبادة اذاً طاعة الله ، والتزام ما شرعه من الدين ، وهذا كما يشمل الطاعات البدنية كالصوم والصلاة يشملُ الطاعات الاخرى التي منها « الأخلاق والواجبات » فإنها كلّها مما أمرَ به الشارع وحضَّ عليه أشدَّ حض ، وذكّر به أبلغ تذكير . بل ان الطاعات البدنية ـ على فضلها ، وعلوّ منزلتها في نظر الشارع ـ إنما يراد بها تكميل

الاخلاق والواجبات ، وتربية النفس التربية الدينية الفاضلة بدليل قوله تعالى :

﴿ أقمِ الصَّلاةَ : إنَّ الصلاةَ تَنْهى عن الفَحشاءِ والمُنْكَرِ ﴾

وقوله صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ مَنْ لم تَنهَهُ صلاتُهُ عن الفحشاءِ والمُنْكَرِ لم يَزْدَدْ من اللهِ إلاّ بُعْدًا ﴾

﴿ كم مِنْ صائمٍ ليسَ له مِنْ صيامِهِ إلا الجُوعُ والعَطَشُ . ﴾

فالعبادة البدنية إنما تقع موقعها من رضاء الله تعالى اذا أدَّت الى تزكية النفس ، وتطهير الأخلاق ، وحسن القيام بالواجبات ، من حيث يكون ذلك سبباً في عظمة الامة ، وثبات أمرها ، ونفوذ سلطانها . وقال بعض علمائنا المتقدمين : «أدركنا السلفَ وهم لا يرون العبادة في الصوم ولا في الصلاة ولكن في الكفّ عن أعراض الناس » وقد نبّه الشارع صلى الله عليه وآله وسلم ، في غيرِ ما حديثٍ الى تفضيل الأخلاق على العبادات بنسبة ما لها من الاثر البيّن ، والنفع الظاهر في مصالح البشر ، وسعادة حالهم . من ذلك قوله صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ تفكُّرُ ساعةٍ خيرٌ من عِبادةِ ستّينَ سَنَة ﴾

﴿ عدلُ ساعةٍ خيرٌ من عِبادةِ ستّينَ سنة ﴾

﴿ إصلاحُ ذاتِ البَيْنِ خيرٌ من عامّةِ الصّلاةِ والصّيام ﴾

والمراد باصلاح ذات البين السعيُ في إزالة الخصام وسوء التفاهم من بين المتنازعين من أبناء الامة ، فيؤول أمرهم الى الألفة والقوة .

﴿ نَظرُ الرَّجلِ الى والدَيْهِ حُبًّا لهما عِبادة ﴾

﴿ مَنْ مشى في حاجةِ أخيهِ ساعةً من ليلٍ أو نهارٍ ـ قَضاها او لم يَقْضِها ـ كانَ خيراً له من اعتكافِ شهرَين ﴾

﴿ إنَّ صَبْرَ أحَدِكم ساعةً في بَعْضِ مَواطنِ الإسلامِ خيرٌ له من أن يعبُدَ اللهَ أربعينَ يوماً ﴾

يعني أن اهتمامه وثباته في موقف يَدْرَءُ به الخطر عن امته خيرٌ له من العبادة في تلك المدة .

﴿ العبادةُ عشرةُ أجزاء : تِسعةٌ منها في طلَبِ الحَلال ﴾

كأنه يقول كسبُ المال الطيب الحلال تسعة أعشار العبادة

وكما فضّل الشارع مكارم الاخلاق على مجرّد عبادة الجوارح فضّل العلم والفقه ـ أعني الفهم في أسرار التشريع الاسلامي ـ على مجرّد العبادة أيضاً . اذ قال صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ عالِمٌ يُنْتَفَعُ بعلمِهِ خيرٌ من ألفِ عابدٍ ﴾

فكل هذه الاحاديث الشريفة وأمثال أمثالها معها صريحة في أن مكارم الأخلاق ، وتكميل النفس بالعلم الصحيح ، وممارسة الواجبات الشخصية والاجتماعية ، هي عبادة . بل قد تكون أحياناً خيراً من العبادة ، وذلك بحسب ما لها من حسن الأثر في نفع الامة ، وتوفير الخير لها .

الدنيا والآخرة

لا نعلم ديناً من الاديان السماوية وَفَّق بين مصلحتي الدنيا والآخرة ، وحض على العمل لهما كليتهما بقدر ما فعل دين الاسلام ، وكان الشارع صلى الله عليه وسلم نفسه يراوح بين أعمال الدنيا وأعمال الآخرة : فلا تراه مقبلاً على عمل من أعمال آخرته كصيام وقيام حتى تراه قد انصرف عنه الى عمل آخر من أعمال دنياه : كمدافعة الخصوم وإعداد القوة ، والنظر في مصالح المسلمين العامّة ، والعناية بأهل بيته وزوجاته الطاهرات ، وإغاثة الفقراء ، وذوى الحاجات ، وعيادة

المرضى ، وتفقد الأصدقاء الى غير ذلك . فالاسلام بطبيعته يمهّد بين يدي أتباعه سبيلَ التكامل الجسميّ والنفسيّ ، ويُرشدهم الى استعمال جميع قواهم كيْ يصلوا الى مستوى السعادتين : سعادة الدنيا ، وسعادة الآخرة ، فهو لم يجعل للجسد سلطةً على الروح حتى تفنى فيه ويُصبح الانسان ماديًّا محضاً ، ولا للروح سلطة على الجسد بحيث يفنى فيها ويصبح مخلوقاً غريباً عن هذا العالم . واذا تصفحنا التاريخ وتأملنا في أسباب سقوط الامم واعتلائها وجدنا أن سقوطها لم يكن الا أثراً من آثار اقتصارها على العمل لأمر دنياها وحدَها ، أو أمر آخرتها وحدها ، وأن اعتلاءها ناتجٌ عن اعتدال الامرين ، وتوازن الكفّتين ، والتمتع بكلتا الحسنتين . والشواهد على لزوم هذا الاعتدال والتوازن ـ من نصوص الشريعة ـ كثيرة وافرة العدد ، من ذلك قوله تعالى :

﴿ وابْتَغِ فِيما آتاكَ اللهُ الدّارَ الآخِرَةَ ولا تنْسَ نَصيبَكَ مِنَ الدُّنيا ﴾

ومن الاحاديث الشريفة الواردة في هذا المعنى قوله ﷺ:

﴿ إنّ أهْلَ المعروفِ في الدُّنيا همْ أهْلُ المعروفِ في الآخِرة ، وإنّ أوّلَ أهْلِ الجَنّةِ دُخولاً الجنةَ أهلُ المعروف ﴾

﴿ احْرُث لدُنياكَ كأنّكَ تعيشُ أبداً ، واحْرُثْ لآخِرتِكَ كأنّكَ تموتُ غداً ﴾

وقد فسّروا الحرث هنا بكسب المال وجمعه ، بدليل ما ورد في بعض روايات هذا الحديث :

﴿ احرُثِ المالَ كأنّك تعيشُ أبداً ﴾

﴿ إعمَلْ عَمَلَ امْرِئٍ يظنُّ أنْ لَنْ يَموتَ أبداً. واحذرْ حذَرَ امرئٍ يخْشى أن يموتَ غداً ﴾

وذَمَّ رجلٌ الدنيا عند علي بن أبي طالب رضي الله عنه فقال له الإمام «الدنيا دارُ صِدْق لمن صدقها ودارُ نجاةٍ لمن فهم عنها ، ودارُ غنى لمن تزوَّد منها»

الخير والواجب

ويُسَمَّى الخير أحياناً «العملَ الصالح والبرَّ» بكسر الباء كما يُسمَّى صاحبه «البارَّ» و «البَرَّ» بفتح الباء . ولكلٍ من الخير والبرِّ في الأصل معنى لغويّ خاص كالمال والصِلَة والعطيّة . ثم توسَّعوا فيهما فأطلقوهما على كل عملٍ صالح ، أو احسانٍ أو جميلٍ أو معروفٍ أو شيء نافع مفيد يوصله الانسان الى أخيه الانسان ، بل الى كل ذي كَبِد رَطْبة من الحيوان حتى قال الحسن البصري رضي الله عنه: «البَرُّ مَنْ لا يؤذي الذَرَّ»

وضدُّ الخير «الشرُّ» وصاحبه «الشرّير» و«الفاجر» وهو من يرتكب الظلم والفساد . ولا يألو في إيصال الأذى والسوءِ الى الآخرين

ولمَّا كان فعلُ الخير وممارسة أعمال البرِّ مما يؤدي الى سلامة المجتمع الانساني وراحته وطمأنينته وكان كل انسانٍ كامل شاعر بقيمة انسانيته يرى أن فعل الخير ممَّا لا مندوحة عنه ، ولا مفرَّ منه ـ لمَّا كان كلُّ ذلك سَمَّوا «الخير» «واجباً» بهذا الاعتبار ، وعطفوه عليه عطف تفسير فقالوا «الخير والواجب» كأنهم يقولون : الخيرُ الذي هو واجب على بني الانسان

والاخلاق الفاضلة في الانسان انما تنبعث عن عاطفة الخير الراسخة في نفسه . ولذلك قال بعض المؤلفين: إن موضوع علم الاخلاق هو «فكرة الخير» نفسها . وهذا ما جعل علماء التربية يهتمون جدَّ الاهتمام في تقوية هذه الفكرة في الاحداث ، وتنميتها في قلوبهم ، وتعويدهم ممارسة الخير منذ الصغر

والناس ليسوا سواءً في توفر هذه الفكرة فيهم ، واستحكامها من نفوسهم

وإنما هم فيها على مراتبَ ودرجات . وقد وضع لها النبي ﷺ ميزاناً أو قانوناً هو لعمري من أدقّ القوانين الأدبية ، وأصدقها في محاكمة المرء لنفسه : ذلك قوله صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ إنّما الأعْمالُ بالنّيّاتِ ﴾

أي ان مرتبة أي عمل كان ومنزلته من القبول والاعتبار تابعةٌ الى نيّةِ صاحبه وقصده ، وراجعة الى كُنْه إرادته ، ومبلغها من الحسن والاعتدال : فمن وفى دائنه حقّه بعد حكم حاكم كان فاعلا للخير في الجملة ، ولكن ليس هو في نعله كمن وفى دَيْنه من دون حُكْم ولا مطالبة . ومَنْ أنفق على نفسه ورفّهها وسدَّ حاجتها كان فاعلا للخير ، ولكنْ ليس هو في ذلك كمن أنْفَقَ على أهله وعياله وذوي قرابته ، وليس من أنفق على هؤلاء في الفضل والمزيّة كمن أنفق على البعيدِ عنه الذي لا تلزمه نفقته ، وإنما حمله عليها الأرْيحيَّة ومحضُ الكرم ، ومُطلَقُ الإرادة والاختيار . ومن يدع الشر ويفعل الخير خوفاً من تعْيير الناس ومذمّتهم له ليس هو في رسوخ هذه الفضيلة كمن يمارس الخير رغبة في ثواب الله أو رهبة من عقابه ، وليس هذا الاخير في الفضل والتقدّم والسبق كمَنْ يمارس الخير لذات الخير ، وبسائق من نفسه في حبّ الخير لا بتأثير مؤثر خارجي عنه ويُسمَّى هذا السائقُ الداخليُّ أحياناً « الضميرَ والوجدان » و« الشعور بالواجب » وسمّاه بعض علماء الاخلاق « القانون الذاتي » . ويغلبُ هذا السائق النفسي في البشر لحين تكاملهم في التربيتين : « الدينية » و « الاجتماعية » . فخواصّ المتدينين وطبقةُ الأبرار والصدّيقين منهم يعملونَ الخيرَ لذاته ، كما يعبدون ربَّهم سبحانه وتعالى لذاته ، ولكونه مستحق العبادة لا لرغبةٍ في جنته ، ولا لرهبةٍ من ناره ، كما نُقل التصريح بذلك عن كثيرين منهم رضي الله عنهم . وقد قال قائلهم :

(وأعبدُ اللهَ لا أرجو مثوبتَه لكن تعبّدَ إعظامٍ وإجلالِ)

وقد أشار الى هذه الدرجة العالية في التربية النفسية أو الدينية سيدنا عمر رضي الله عنه مذ قال في حقّ سيدنا (صُهَيبٍ) رضي الله عنه « نعم العبد صهيب: لو لم يخف الله لم يعصه » أي انه لا يعصي رَبَّه ولا يدع ما يجب عليه فعله وذلك بسائقٍ من نفسه وفطرته حتى لو فُرِضَ أنه لا يخاف الله ولم يسمع إنذارَه وتحذيره من العذاب فكيف وهو رضي الله عنه يخاف ربَّه ، ويَتّقي سَخَطَه وعذابه ؟ فصهيبٌ رضي الله عنه هو بشهادة عمر سيدُ الأبرار المحسنين الذين يفعلون الخير لذاته وبسائق من وجدانهم وضميرهم وشعورهم بالواجب . ومثله في ذلك ابن عباس رضي الله عنه الذي قال « أني لأسمع بالغيث يُصيب البَلَدَ فأخرج به ومالي فيه سائمةٌ ولا راعية » وانما هو يفرح للناس مذ يكونون في خصبٍ وسعة رزق . وأخذ هذا المعنى أبو العلاء المعري فقال :

(ولو اني حُبيتُ الخلدَ فرداً لما احببتُ في الخلد انفرادا)

(فلا هطلَتْ عليّ ولا بأرضي سحائبُ ليس تنتظم البلادا)

ومعرفةُ الخير من الشرّ والتمييز بينهما أمر مركوز في فِطَر البشر بل يكاد يكون بديهيًّا فيهم اذا كانت فِطرهم سليمة ، وأمزجتهم مستقيمة . أما ممارسة الخير والقيام به عملا فهو شاقٌّ على النفس يحتاج الى تربيةٍ وعنايةٍ وتعويدٍ منذ زمن الحداثة والصغر . وأحسنُ ما تُرَوَّضُ به نفوسُ الناس ـ بحيث يحملون على فعل الخير وترك الشرّ بسهولةٍ واقتناع ـ هذه القاعدة التي توارثتها الامم ، وادّعاها أهلُ كلّ دين جيل بعد جيل وهي « لا تفعلوا بالناس مالا تريدون أن يفعلوا بكم » وقد ورد في معنى هذه القاعدة الذهبيّة أحاديث نبوية شريفة هي أفصحُ اسلوباً وأجزلُ تركيباً . منها قوله صلى الله عليه وآله وسلم :

« إئْتِ المعروفَ واجْتَنِبِ المنكرَ . وانظرْ ما يُعجِبُ أُذُنَكَ أنْ

يقولَ لكَ القومُ إذا قمتَ من عندِهمُ فأتِهِ، وانظرِ الذي تكْرَهُ أن يقولَ لكَ القومُ إذا قمتَ من عندِهم فاجْتَنِبْه ﴾

﴿ إذا أردْتَ أن تَذْكُرَ عيوبَ غيرِكَ فاذكرْ عيوبَ نفسِكَ ﴾

﴿ أحبِبَّ للناس ما تُحبُّ لنفسِك ﴾

﴿ ما كرهتَ أن يَراهُ الناسُ منكَ فلا تفعلْه بنفسِكَ اذا خلوتَ ﴾

ويشبه هذا من القرآن قوله تعالى :

﴿ أتأْمُرونَ الناسَ بالبرِّ وتَنْسَوْنَ أنفسَكم ﴾

ومن ذلك حديث أشار فيه صلى الله عليه وآله وسلم إلى أن ضمير الانسان ووجدانه هو الحكَم العدل بينه وبينَ ربّه في معرفة الخير والشر ، والتمييز بينهما ، فلا يقول فلان أفتاني وفلان قال لى وانما يرجع الى أعماق نفسه ، وحُرِّ ضميره ، فهو لا يكذبه ، ولا يدلّس عليه فقال (صلى الله عليه وآله وسلم) :

﴿ استفْتِ قلبَكَ وإنْ أفْتَاكَ المُفْتُون ﴾

ومن ذلك إرشاده لنا ﷺ الى عمل الخير بجميع أنواعه وأشكاله ، حتى اذا عجزْنا عن فعله بذواتنا ، أمكننا أن نمارسه بدلالةِ غيرنا عليه فقال :

﴿الدالُّ على الخيرِ كفاعِلِه ، والدالُّ على الشرِّ كفاعِلِه ﴾

وهناك أحاديث تحضّ على فعل الخير وتعين بعض صوره وأشكاله وطرائقه من ذلك قوله صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿على كلِّ مُسلمٍ صَدَقَةٌ : فإنْ لَمْ يَجدْ فَيعْمَلُ بيدِهِ فينْفَعُ النّاسَ ويتَصَدَّق فإنْ لم يستَطِعْ فيُعِينُ ذا الحاجةِ الملهوفَ ، فإنْ لمْ يفعَلْ فيأمُرُ بالخير فان لم يفعلَ فيُمْسِكُ عن الشرِّ ، فإنَّهُ له صدقة ﴾

يعنى أنه لا مندوحة للانسان الكامل عن ممارسة الفضيلة وفعل الخير بأية طريقة ممكنة ، ولا عذر له في الترك والاهمال . وهناك حديث خصّ فيه بعض

الواجبات ثم عمها فقال صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ كُلُّكُمْ راعٍ ، وَكُلُّكُمْ مسؤولٌ عنْ رَعِيَّتِهِ : فالإمامُ راعٍ وهُوَ مَسؤولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ ، وَالرَّجُلُ راعٍ في أهْلِهِ وهُوَ مَسْؤولٌ عنْ رَعيتهِ ، والمَرْأةُ راعيةٌ في بيتِ زَوْجِها وهي مسؤولةٌ عن رعيَّتها ، والخادمُ راعٍ في مالِ سيِّدِهِ وَهو مسؤولٌ عن رَعيَّتِهِ ، والولدُ راعٍ في مالِ أبيه وهوَ مسؤول عن رعيته . فكُلُّكُمْ راعٍ ، وَكُلُّكم مسؤولٌ عن رعيته ﴾

فالشارع يعتبر كل واحد من البشر له عمل في دنياه يجب عليه أن ينصح فيه ، ويقومَ به خيرَ قيام ، واذا قصَّرَ في ذلك أو أهمل كان مسؤولاً مُؤاخذاً وكفى بهذا الحديث الشريف حضاً على لزوم القيام بالواجبات العائلية والاجتماعية ودلالة على عظم شأنها . وقال صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ الفَضلُ في أنْ تَصِلَ مَنْ قَطعكَ ، وَتُعْطَى مَنْ حرَمَكَ ، وتَعْفُوَ عمَّنْ ظَلَمَكَ ﴾ يعنى أنه بهذا تتحقق انسانيتك ، وكرمُ أخلاقك : في أن تحسن الى المسيء ، لا في أن تحسن الى المحسن فانما أنتَ اذ ذاك تاجر معاوض . ومثل هذا الحديث ما وَصف الله تعالى به الابرارَ مذ قال :

﴿ ويَدْرَؤُونَ بالحَسَنَة السَّيِّئَةَ ﴾

أي يدفعون الشرَّ بالخير بحيث اذا أساءَ اليهم مسيء أحسنوا هم اليه ، ولم يقابلوه على إساءته بالسوء فهم اذا حُرِموا أعْطَوْا ، واذا ظُلِموا عفَوا ، واذا قُطِعوا وصَلُوا . ومن كلام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه « ياسبحان الله ! ما أزهدَ كثيراً من الناس في الخير ! ! عجبت لرجل يجيئه أخوه في حاجةٍ فلا يَرَى نفسهَ للخير اهلاً . فلو كُنَّا لانرجو جنَّةً ، ولا نخاف ناراً ، ولا ننتظر ثواباً ، ولا نخشى عقاباً ـ لَكان ينبغى لنا أن نطلبَ مكارمَ الاخلاق فانَّها تدلُّ على سبيل النجاة »